البناء العلمي (٢)

عمدة الفقه

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

حياكم الله أيها الأحبة في الدرس الثاني من دروس عمدة الفقه، للإمام الموفق ابن قدامة -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-، وهذا الدرس من ضمن الدروس التي تقدم في البناء العلمي، والتي نسأل الله -عز وجل- أن تكون عاصمة لنا من نار تلظى، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل، وأن يختم لنا وإياكم بالخير، فإن سلوك طريق العلم، إذا لم يكن معه توفيق من الله، وإعانة من الله لعبده على الإخلاص، فإن العلم ينتقل من أعظم الطاعات، إلى أن يكون من أحط المخالفات، نسأل الله -عز وجل- أن يعيننا وإياكم على طاعته وذكره وشكره، ومحبته، ومحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم.

في الدرس الماضي تحدثنا معكم حول مجموعة من المقدمات الهامة في علم الفقه، تكلمنا عن فضل الفقه، العلم بشكل عام، تحدثنا عن فضل الفقه، تحدثنا عن أهم وأفضل الطرق وأنسبها في ما يتعلق بالتفقه، وتكلمنا عن التمذهب في دراسة الفقه، وتحدثنا كذلك عن طريقة دراسة علم الفقه، وكيف يترقى فيها طالب العلم، ثم تحدثنا بعد ذلك عن المذاهب الأربعة وعن الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تعالى ورحم سادتنا الأئمة الأربعة جميعًا-، إنه -عز وجل- جواد كريم.

في هذا اللقاء -بإذن الله عز وجل- سيكون الحديث عن الكتاب الذي سنشرحه في هذه الدروس، وهو كتاب عمدة الفقه.

اسم الكتاب الذي سنتحدث عنه هو كتاب عمدة الفقه، للإمام ابن قدامة المقدسي – رحمه الله.

أول هذه القضايا التي تتعلق باسم الكتاب، من أين أتى هذا الاسم؟ كل العلماء الذين تحدثوا عن ابن قدامة –رحمه الله– ذكروا أن اسم الكتاب عمدة الفقه، وهو – رحمه الله– في مقدمة الكتاب قال: ليكون عمدة لقارئه، فهذا الاسم تحريره اسم صحيح، ذكره المصنف –رحمه الله.

ما هو منهج المصنف في هذا الكتاب؟

المصنف –رحمه الله– بين منهجه في الكتاب، أنه سيبنيه على قول واحد، فهذا أول الأمور، أن الكتاب سيُبنى على قول واحد، ولن يذكر الخلاف والروايات والأوجه التي تكون في المذهب، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله.

الأمر الآخر أن الكتاب هو من ضمن الكتب التي توضع للمبتدئين في دراسة علم الفقه، فهو كتاب مختصر، والمختصر هو ما قل لفظه، وكثر معناه، وفي مقابله الإطناب والإسهاب، وهو الذي يكون ما كثر لفظه وقل معناه.

الأمر الآخر: ذكر –رحمه الله– أنه يبني الكتاب أو يبني الباب على ما صح من الأحاديث على صاحبها أفضل الصلاة وأتم السلام.

سار في ترتيب الكتاب على ما سار عليه العلماء الحنابلة –رحمهم الله تعالى– ، فبدأ بكتاب العبادات، ثم المعاملات، ثم الأنكحة، ثم القضاء، والشهادات ونحو ذلك، وسيأتي تفصيل طريقة الفقهاء –رحمهم الله– في ذكر أبواب الفقه.

المسألة الثالثة: هذا الكتاب من الكتب التي لا يستغني عنها طالب العلم، ومن أراد أن يتفقه وأن يأخذ العلم من مصدره ومن منبعه فعليه بهذا الكتاب العظيم، ولأهميته ومكانته ومنزلته قام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- بشرحه، وقد طُبع من هذا الشرح عدد من الأبواب، كتاب الصيام والصلاة، وعدد من الأبواب في هذا الكتاب، فشيخ الإسلام -رحمه الله- حينما يتصدى لهذا الكتاب، فهذا دليل على مكانة هذا الكتاب، ومنزلته، ومكانة صاحبه.

الكتاب له عدد من الشروح، من أهم هذه الشروح: شرح بهاء الدين، وهو من تلاميذ الإمام الموفق ابن قدامة -رحمه الله-، وهذا الشرح طُبع أخيرًا طبعة جيدة، مصححة على مجموعة من المخطوطات، وميزة هذا الشرح أنه أقرب لفهم الإمام الموفق ابن قدامة؛ لأنه من تلاميذه، وقد أتى بشكل جيد، والإخراج الجديد للكتاب الذي طبعته دار هجر، خرج بشكل مصحح منقح، فيشكر القائمون عليه.

أيضًا من الشروح المهمة: شرح الشيخ البسام -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-، ومن شروحه: شرح الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، وقد أتى هذا الشرح في ثلاثة مجلدات، وهذا الشرح بحق استوعب الكثير من المسائل، وميزة هذا الكتاب -شرح الشيخ الجبرين- طبعًا هو غير الشيخ العلامة عبد الله بن جبرين، هو الشيخ عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، من طلبة العلم، المملكة العربية السعودية، وأيضًا يعمل في دار الإفتاء.

هذا الكتاب طُبع في ثلاث مجلدات، ويمكن تحميله من مواقع الإنترنت، أحث طلبة العلم على قراءته واستيعابه والنظر فيه.

الشرح الثالث: شرح وبل الغمامة، على عمدة الفقه لابن قدامة، وقد قام بشرحه في تسع مجلدات الدكتور عبد الله الطيار، ويتميز هذا الكتاب عن كتاب الشيخ الجبرين بسهولة العبارة، ووضوح تصوير المسائل فيه، واستيعابها، وقد أتى في شرح ماتع نافع، جزا الله الشارح خير الجزاء.

هذه طبعًا إضافة إلى شرح الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

المسألة الثانية: الحديث عن مؤلف الكتاب.

مؤلف الكتاب: الإمام موفق الدين أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن قدامة، المقدسي، الدمشقي، الصالحي، وهو نشأ في بيت علم ودعوة وخير، ولد -رحمه الله- في منطقة جماعيل من مناطق نابلس، سنة خمسمائة وواحد وأربعين في شهر شعبان.

له قرابة بصاحب كتاب عمدة الأحكام، عبد الغني المقدسي، ما القرابة بينهم؟ هو ابن خاله، ولهذا خرجا جميعًا في طلب العلم، وتعاونا جميعًا في طلب العلم، فقدم هذا عمدة الفقه من الكتب العظيمة في متون الفقه، وقدم هذا عمدة الأحكام، من المتون العظيمة في أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم.

كان من كبار العلماء، لم يره أحد إلا وأعجب فيه بأمرين: الأمر الأول: كثرة علمه واطلاعه، سواءً في الفقه، أو في اللغة، أو في التفسير، أو في الحديث، أو بمعرفة الأقوال، والأمر الآخر: حسن خلقه، حتى يقولون: إنه لم يكن يناظر إلا وهو مبتسم، وكان لطيف المعشر، حسن السمت -رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

أثنى عليه العلماء كثيرًا، ومن هؤلاء العلماء الذين أثنوا عليه الإمام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-، الإمام البهاء، وغيرهم من أهل العلم والفقه.

كان -رحمه الله تعالى- يجلس للناس، وكان مجلسه مشهودًا، يطيل فيه الجلوس، ولا يضجر من الناس، ولا يسأم منهم، وقد جعل الله -عز وجل- رحابة في صدره في تقبل الناس، ونشر العلم بينهم.

توفي -رحمه الله تعالى- سنة ستمائة وعشرين، وكانت جنازته مشهودة -رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

خلَّف في التاريخ الإسلامي عددًا كبيرًا من الكتب، ومن أهم كتبه أربعة كتب:

الكتاب الأول: عمدة الفقه.

الكتاب الثاني: كتاب المقنع.

الكتاب الثالث: كتاب الكافي.

الكتاب الرابع: المغني، وهو شرح على مختصر الخرقي.

يقول الشيخ عبد العزيز عفيفي -رحمه الله تعالى: وقد سبق الإمام ابن قدامة -رحمه الله- أهل التعليم في عصرنا، فجعل كتاب عمدة الفقه للمرحلة الابتدائية، والمقنع للمرحلة المتوسطة، والكافي للمرحلة الثانوية، وجعل المغني للمرحلة الجامعية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، الآن المرحلة الجامعية تبدأ بعمدة الفقه لابن قدامة -رحمه الله-، لكن بالفعل الإمام -رحمه الله- جعل عمدة الفقه على قول واحد، المقنع تعددت فيه الروايات والأوجه، يذكر الروايتين والوجهين، كتاب الكافي يذكر مع هذا أيضًا الأدلة من القرآن والسنة، وكتاب المغني، ويذكر فيه الخلاف، وهو من الكتب التي تتحدث عن الخلاف على المذاهب الأربعة، وأكثر من ذلك في ذكر أقوال العلماء والصحابة

والتابعين، ومن بعدهم -رحمهم الله تعالى رحمة واسعة-، وهو موسوعة علمية في غاية الأهمية.

ذكر بعض العلماء أن كتب الإسلام: المغني لابن قدامة، والمحلى لابن حزم، والاستيعاب لابن عبد البر، وصدق، فإن من قرأ هذه الكتب الثلاث، فلابد أن يستوعب أكثر الفقه، وأن يلم بأكثر الأحكام الشرعية التي ذكرها العلماء -رحمهم الله تعالى.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو الكتاب الأول من كتب الإمام -رحمه الله تعالى-، وهو كتاب عمدة الفقه.

المسألة الثالثة: ننتقل إلى الكتاب، هذه مقدمات، تقدم الحديث عنها في كتاب الإمام -رحمه الله تعالى-، أردنا من خلالها أن تكون عبارة عن إضاءات، تعين طالب العلم، قبل أن يلج إلى هذا الكتاب، ويبتدئ في الأحكام الفقهية، التي قعدها وذكرها المصنف -رحمه الله تعالى.

نبدأ بكتاب عمدة الفقه.

{بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله أهل الحمد ومستحقه، حمدًا يفضل على كل حمدٍ كفضل الله على خلقه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة قائم لله بحقه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، غير مرتاب في صدقه، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه، ما جاد سحاب بودقه، وما رعد بعد برقه}.

المصنف -رحمه الله تعالى- افتتح الكتاب بقوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" وهذا الافتتاح من المصنف، هو اقتداء بالقرآن، بالكتاب العزيز، وتأسٍ بالنبي -صلى الله عليه

وسلم-، فإن القرآن يفتتح بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث كتابًا، فإنه يبتدئه بـ"بسم الله الرحمن الرحيم".

وأيضًا جاء في كتاب الله -سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، يقولون: هذا من أبلغ ما يكون، ففي هذه الكلمات البسيطة، ذكرت المرسل، وذكرت فحوى الرسالة، ذكرت المقدمة ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ﴾ هذا المرسل ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

وأيضًا جاء في الحديث يُروى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر»، وقد ذكر بعض العلماء أن هذا الحديث ضعيف، وعدد من أهل العلم ذكروا أن هذا الحديث حسن لغيره، عمومًا إن لم يصح الحديث، فإنه يكون تأسٍ بالقرآن وبالسنة، وإن صح الحديث، فلدينا حديث آخر: «كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه بذكر الله»، وحديث آخر: «كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه بالحمد لله»، وهذا الحديث حسن.

قال العلماء: إن البدء بالحمدلة هو نسبي إضافي، أي لما بعد بسم الله الرحمن الرحيم، فتكون البداية ببسم الله الرحمن الرحيم، ثم يكون بعد ذلك البدء بالحمد، كما بين العلماء -رحمهم الله.

وينبغي للمسلم أن يحرص في كتاباته على أن يتأسى وأن يقتفي ما جاء عن النبي الكريم -عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

قال: "الحمد لله" الألف واللام في "الحمد لله" يقول العلماء: أنها بمعنى الاستغراق، بمعنى أن كل أنواع الحمد لله -جل وعلا-، فالله -سبحانه وتعالى- يُحمد على ذاته، ويُحمد على أسمائه وصفاته، ويُحمد على شرعه وأمره، ويُحمد على قضائه وقدره، فكل

أنواع الحمد فهي لله -سبحانه وتعالى-، ولهذا قال: الألف واللام هي للاستغراق، أي كل أنواع المحامد هي مختصة لله -جل وعلا.

قال: الحمد، ما هو الحمد؟

يقول العلماء: الحمد هو الوصف بالجميل الاختيار على المنعم لكونه مُنعمًا على الحامد أو غيره.

وهذا الحمد يختلف عن الشكر، يقول العلماء: هناك فرق بين الحمد وبين الشكر، ما الفرق؟

قالوا: من جهة السبب: الحمد أعم، ومن جهة التعبير: الشكر أعم، من يفسرها لنا؟

يقولون: هناك فرق بين الحمد والشكر، فمن جهة الحمد، فالحمد أعم من الشكر من جهة السبب، والشكر أعم من الحمد من جهة التعبير.

قالوا: الحمد أعم من الشكر من جهة السبب؛ لأن الحمد يكون على النعمة التي تُسدى للإنسان، وقد لا يكون مقابل نعمة، فهو يحمد الإنسان، يعني شخص كريم، ويبذل ماله للناس، أنت لم يصلك شيء منه، فأنت تحمد له هذا الأمر. قال: هو الوصف بالجميل الاختيار على المنعم لكونه مُنعمًا، إذن هو أعم، لكن الشكر لا يكون إلا لمقابل، قال -صلى الله عليه وسلم: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه»، قال -صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس».

إذن الحمد ليس شرط أن يقدم لك الإنسان خيرًا حتى تحمده، والشكر لابد أن يكون مقابل نعمة، فالحمد أعم من الشكر من هذا الباب، وهو السبب.

قالوا: والشكر أعم من جهة التعبير، لماذا؟ لأن الحمد يكون باللسان، بينما الشكر يكون بالقلب، وبالجوارح، وباللسان، قال الأول:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة: يدي واللسان والضمير المحجّبا

إذن الشكر أعم من جهة التعبير، قال الله -عز وجل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وقال -سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال -عز وجل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

إذن الشكر من جهة التعبير أعم؛ لأنه يكون بالقلب والجوارح، ويكون كذلك باللسان.

قال -رحمه الله تعالى: "الحمد لله" الله لفظ لا يُطلق إلا على المولى -سبحانه وتعالى-، وقد قيل -وهو رواية، وإن كانت لا تصح- أنه هو اسم الله الأعظم، وقال بعض العلماء: اسم الله الأعظم "الله لا إله إلا هو الحي القيوم".

قال -رحمه الله تعالى: "أهل الحمد ومستحقه" فالله -عز وجل- أهل لأن يُحمد، وأهل لأن يُعبد -سبحانه وتعالى-، وهو مستحق لهذا الحمد؛ لعظمته في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، ولما أنعم به علينا من نعم لا تُعد ولا تُحصى.

ولهذا جاء طبعًا في الحديث، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: «الحمد لله على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار».

العبد يحمد الله -عز وجل- في سرائه وفي ضرائه، كيف يحمده في السراء؟

قال: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن».

وهناك من الكتَّاب الغربيين من كان سبب إسلامهم هو رؤية أهل الإسلام كيف يتعاملون مع المصائب، تأتيه المصيبة، يقول: الحمد لله، لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلفني خيرًا منها، الحمد لله على كل حال، ونعوذ بالله من حال أهل النار. هناك رضا عن الله -سبحانه وتعالى.

قال: «وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن».

قال: "حمدًا يفضل على كل حمد"، الله -عز وجل- له الحمد الأعظم، وله الحمد المطلق -سبحانه وتعالى-، وقد جاء في الحديث: «إن فضل كلام الله على سائر الكلام، كفضل الله على سائر خلقه».

قال: "وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، هذه شهادة التَّوحيد، التي من قالها فاز ونجا، وهي كلمة التَّوحيد، التي من أجلها أرسل الله الرسل، وأنزل الله الكتب، ومن أجلها قامت الشرائع، ومن أجلها أرسل الله عباده المؤمنين من المرسلين، ليقولوا للناس: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، قال -سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال -سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، فما أرسل الله من رسول إلا وهو يقول لقومه: اعبدوا الله مالكم من إله غيره، وهذه الكلمة العظيمة من أتى بها وبشروطها نجا، وقد جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، لا إله إلا الله مفتاح الجنة، لكن هذا المفتاح لابد له من أسنان، وأسنانه شروطه، وهي شروط شهادة أن لا إله إلا الله، وقد جمعها الناظم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع محبة وانقياد والقبول لها

فهذه شروط شهادة أن لا إله إلا الله، من أتى بها كان من أهل الجنة، وقد جاء في الحديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»، وشيئًا نكرة، وهي في هذا السياق تدل على العموم، شيئًا سواءً كان صغيرًا أو سواءً كان كبيرًا، كما في حديث الذباب الذي جاء في مسند الإمام أحمد -رحمه الله تعالى رحمة واسعة-، حينما أورد قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «دخل النار رجل في ذبابة، ودخل الجنة رجل في ذبابة» الحديث.

قال: "وأشهد أن لا إله إلا الله"، العلماء يقولون: لا هنا نافين للجنس، يعني لا معبود، لابد أن يوضع لها قيد، بحق إلا الله؛ لأن هناك آلهة تُعبد، الأصنام تُعبد من دون الله، الأوثان تُعبد من دون الله، الآن في بعض الدول الفئران تُعبد من دون الله، البقر تُعبد من دون الله، الحشرات عند البعض يُعبد من دون الله، وهناك أشخاص يُعبدون من دون الله -عز وجل-، فهؤلاء آلهة، لكنها باطلة، قال الله -جل وعلا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

و"لا إله إلا الله" كلمة التَّوحيد، قائمة على النفي والإثبات، النفي نفي العبادة عن غير الله، والإثبات إثبات العبادة لله -سبحانه وتعالى لا شريك له جل وعلا.

قال: "وحده" وهذا تأكيد لمعنى "لا إله إلا الله"، قال: "لا شريك له" أيضًا تأكيد للنفي لا إله ولا شريك، فكلها تأكيد بعد تأكيد، قال العلماء: تأكيد بعد تأكيد ليدل على عِظم هذا الأمر.

قال: "شهادة قائم لله بحقه"، حينما يقوم العبد بالشهادة، وهو قائم لله بحقه، يعني مجتمع، قد جمع شروط هذه الشهادة، فهي التي تنجيه عند الله -سبحانه وتعالى.

قال: "وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، الشهادة هي ركن واحد، جاء في الحديث: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله» هذه واحدة، فلا تتم الشهادة لله –عز وجل– بالوحدانية إلا أن يشهد العبد للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالرسالة، وأن يعلم أنه خاتم المرسلين –صلى الله عليه وسلم.

قال: "عبده ورسوله" فيها أمران: إثبات أن النبي –صلى الله عليه وسلم– عبد لا يُعبد، وأنه رسول شرفه الله –عز وجل–، النبي –صلى الله عليه وسلم– له منزلته العظيمة، ونسأل الله –عز وجل– أن يحشرنا تحت لوائه، وأن يوردنا حوضه، فنشرب من يده المباركة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا، لكن ليس لأحد من المسلمين أن يصرف أي نوع من أنواع العبادة التي مستحقة لله لنبيه –صلى الله عليه وسلم–، ما الدليل؟

لو نظرنا في القرآن، نجد أن الله –عز وجل– يفرِّق بين حقه، وحق رسوله، من يعرف آية؟ آية في القرآن تفرِّق بين حق الله، وبين حق رسوله.

قال الله –عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: ٥٢]، الطاعة لله والرسول، يجب علينا طاعته، وقد جاءت طاعة النبي –صلى الله عليه وسلم– في أكثر من ثلاثين آية، إذن الطاعة لله وللرسول، لكن الخشية والتقوى عبادات قلبية لا يجوز صرفها لغير الله، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، بل تصرف لله –سبحانه وتعالى– وحده، هذا ما علمنا إياه نبينا الكريم –عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وشهادة أن محمدًا عبده ورسوله، لا تتم للعبد إلا بثلاثة أسباب:

الأول: طاعته في ما أمر.

الثاني: تصديقه فيما أخبر.

الثالث: اجتناب ما نهى عنه وزجر.

إذن: حتى يكون العبد قد أتى بهذه الشهادة، لابد من ثلاثة أمور: تصديقه فيما أخبر، تصديقًا يقينيًّا، فلا يأتي الإنسان ينتقي، يقول والله هذا الحديث ليس صحيحًا؛ لأن العقل لا يدل عليه، مثل حديث سجود الشمس، قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «هل تعلمون أين تذهب الشمس؟» حينما غربت، قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «إنها تذهب حتى تأتي العرش، فتسجد، ثم تستأذن فيؤذن لها، فتُشرق، ثم إنه يوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها، ويُقال لها: عودي من حيث جئت، فتخرج من المغرب».

فيأتي شخص ويقول: والله أنا لا أؤمن بهذا الأمر؛ لأن العقل لا يدل عليه، لا، يجب أن نصدق ما أخبر به النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن ما جاء به هو الحق -عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

النبي -عليه الصلاة والسلام- حينما أخبرنا في قصص كثيرة عن ذلك الذئب الذي يتكلم، وأتى الأعرابي فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال النبي -عليه الصلاة والسلام: «فإني أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر» على نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام.

قال: وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، إذن ذكرنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو بشر، وهو عبد لله -جل وعلا-، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]، فميزته في الرسالة، ميزته في النبوة -عليه أفضل الصلاة والسلام-، فلا نصرف له شيء من أنواع العبادة التي أمر الله -عز وجل- أن تكون له -سبحانه وتعالى-، وأيضًا لابد أن نثبت محبتنا لله بطاعتنا لرسوله، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم- تكون بتصديقه فيما أخبر، وطاعته

فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرعه رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

قال -رحمه الله: "غير مرتاب في صدقه" شهادة حق ويقين أن ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- هو الحق الذي يجب علينا أن نتبعه.

قال: "صلى الله عليه وسلم عليه" ما معنى "صلى الله عليه وسلم عليه"؟ ما معنى "صلى الله عليه"؟ دائمًا نكررها ونرددها.

{أي أثنى عليه في الملأ الأعلى}.

العلماء -رحمهم الله- اختلفوا في معنى "صلى الله" فقال أكثر العلماء: الصلاة من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن الآدميين الدعاء، لكن أبا العالي -رحمه الله- قال: صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، ولعل هذا الصواب، لماذا؟ لأن القرآن غاير بين الصلاة وبين الرحمة، قال -جل وعلا: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، والأمر الآخر: العلماء -رحمهم الله- لم يختلفوا أنه يقول أنه يجوز لك أن تقول لأي شخص رحمه الله، هل هناك شخص مسلم لا يجوز أن أقول له: رحمه الله؟ لا يوجد، إذن الرحمة لكل المسلمين، لكن هل يجوز أن نقول لغير الأنبياء صلى الله عليه وسلم؟

ما اسمك؟

{صهيب}.

هل يجوز أن نقول الأخ صهيب صلى الله عليه وسلم؟!

هنا اختلف العلماء في هذه المسألة، من العلماء من قال: لا، هي تكون للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ومنهم من قال: إنها تجوز لغير الأنبياء، ولعل الأفضل والأقرب أنها تبقى خاصة بالأنبياء -عليهم أفضل الصلاة والسلام.

فكون الرحمة والصلاة جاءت في آية واحدة، بعض العلماء قال: إن الواو هنا للمغايرة، فالرحمة غير الصلاة، ولعل ما ذهب قول أبي العالي -رحمه الله- هو القول الصواب، وهو أن صلاة الله على رسوله هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى.

قال: "وعلى آله"، من هم آل النبي ؟

قيل: أهل بيته، وقرابته من أهل بيته، وبعضهم يقول: الآل معنى أوسع، يقول:

لو لم يكن، آله إلا قرابته صلى، المصلي، على، الطاغي، أبي لهب

لكن المسألة ما ذهب إليه بعض العلماء أن قوله "وآله وصحبه" أن المراد بهم: هم قرابة النبي -صلى الله عليه وسلم- الذين اتبعوه على دينه.

قال: "وصحبه"، المراد بالصحابة أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- ولقيه مؤمنًا به، ومات على ذلك، لماذا بعض العلماء يتحفظ على من رأى؟ قال: لأن بعض الصحابة كانوا لا يُبصرون مثل ابن أم مكتوم، فقالوا: من لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤمنًا به، ومات على ذلك.

قال: "ما جاد سحاب بودقه" الودق هو المطر، يعني أنني أصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة كلما حملت السحاب المطر، وكلما رعد البرق، وهذا يدل على الكثرة، وعلى تعظيمه في صلاته على النبي الكريم -عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

{فهذا كتاب في الفقه، اختصرته حسب الإمكان، واقتصرت فيه على قول واحد؛ ليكون عمدة لقارئه، فلا يلتبس الصواب ع ليه باختلاف الوجوه والروايات.

سألني بعض إخواني تلخيصه؛ ليقرب على المتعلمين، ويسهل حفظه على الطالبين، فأجبته إلى ذلك معتمدًا على الله –سبحانه– في إخلاص القصد لوجهه الكريم، والمعونة على الوصول إلى رضوانه العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وأودعته أحاديث تبركًا بها، واعتمادًا عليها، وجعلتها من الصحاح؛ لأستغني عن نسبتها إليها}.

قال: أما بعد، ما المراد بـ"أما بعد"؟

قال بعض العلماء: إنها فصل الخطاب، الذي جاء في قول الله –عز وجل: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، لكن الصحيح من الأقوال لأهل العلم: أن فصل الخطاب هو الفصل في المنازعات بين المدعين، وهذه الكلمة اختلف في أول من قالها، فقيل: أول من قال هذه الكلمة –كلمة أما بعد– أنه رجل من فصحاء العرب، وهو سحبان بن وائل، وقيل: إن أول من قال بها علي بن أبي طالب، لكن القول أن أول من قال بها علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– قول فيه نظر؛ لأن هذه الكلمة موجودة حتى في سنة النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما قال: «أما بعد، فما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله»، فهي كلمة متداولة ومعروفة عند العرب، حتى قبل مبعث النبي الكريم –صلى الله عليه وسلم.

وهذه الكلمة هي من الكلمات التي يُفصل فيها بين المقدمة ومضمون الكلام الذي يريده الإنسان.

قال: "فهذا كتاب في الفقه" يعني الكتاب هو سمي كتابًا؛ لأنه يُجمع، يُقال تكتَّب بنو فلان إذا اجتمعوا، وكتيبة الجيش يُقال لها الكتيبة؛ لأنها تجتمع، فالكتاب سمي كتابًا؛ لأنه يُجمع فيه، وفي الفقه تُجمع فيه مسائل الفقه.

قال: "في الفقه" الفقه في اللغة يأتي بمعنى الفهم، قال الله -عز وجل: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، قال -جل وعلا: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]، فالفقه في اللغة هو الفهم، والفقه في الاصطلاح هو معرفة الأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية.

والمعرفة أحيانًا بعضهم يعبر بأنها العلم بالأحكام الشرعية المكتسبة، من أدلتها التفصيلية، وكل كلمة في هذا التعريف لها احترازات، فالعلم يُخرج الجهل، لكن لا يُخرج الظن؛ لأنه أحيانًا تُبنى بعض الأحكام عليه.

قال: "العلم بالأحكام" الأحكام هو خطاب الله -عز وجل- الحكم التكليفي المراد هنا، هو خطاب الله -عز وجل- المتعلق بأفعال المكلفين، طلبًا أو تخييرًا، أو وضعًا، إذا أردنا أن نشمل الأحكام التكليفية والوضعية.

قال: "الأحكام الشرعية" هو يُعنى بالأحكام الشرعية "المكتسبة" المكتسبة عن طريق النظم، عن طري الاستدلال، ونحو ذلك، فهي تُكتسب.

قال: "الأحكام الشرعية المكتسبة من أدلتها التفصيلية" وهذا قيد يُخرج علم أصول الفقه؛ لأن علم أصول الفقه هو طريقة معرفة الأدلة الإجمالية، وليس الأدلة التفصيلية، فالتفصيل يكون في الفقه، والإجمال يكون في أصول الفقه، فأصول الفقه يقول لك: الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، ونحو ذلك من مسائل.

قال -رحمه الله تعالى: "اختصرته حسب الإمكان"، فهو ليس كتابًا مطولاً، وقوله: "اختصرته" أي أنني وضعت فيه ما قلَّ لفظه، وكثر معناه، ولذلك سترون معنا في الدروس أن أحيانًا كلمة واحدة نقف معها وقفات طويلة حتى نبين هذه المسألة.

قال: "واقتصرت فيه على قول واحد"، بمعنى لن أذكر لكم خلافات، ولن أذكر لكم الروايات أو نحو ذلك، بل هو على قول واحد، وهذا الاختصار وكونه على قول واحد، هذا يسمى منهج، وهذا نستفيد منه إذا أراد شخص أن يؤلف، أو خاصة طلاب الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه، لابد أن تبين منهجك في مقدمة الكتاب، ماذا تريد من الكتاب؟ قال: "هو كتاب في الفقه" إذن ليس كتاب عقيدة، ولا كتاب سلوك، ولا كتاب في التفسير، ولا في الحديث، هو كتاب في الفقه.

ثم بيَّن أن هذا الكتاب لا تتوقع أنه كتاب مطول، هو كتاب مختصر جدًّا، ولاختصاره لم أذكر إلا قولاً واحدًا، لماذا؟ بيَّن السبب، قال: "ليكون عمدة لقارئه"، العمدة هو الذي يُرجع له الإنسان باستمرار، فهو عمود يحتاج إليه الإنسان أن يرجع إليه في كل مسألة من المسائل، فهو عمدة تعود إليه بين فترة وأخرى.

قال: "فلا يلتبس الصواب عليه، باختلاف الوجوه والروايات" ، الذي يقول هذا الكلام ابن قدامة، صاحب كتاب المغني، الذي خبر الروايات، والأوجه، والأقوال، ومع هذا قال: لئلا يلتبس الصواب عليك"، إذا أراد الإنسان أن يأخذ الفقه برواياته وخلافاته من البداية، فسيصعب عليه القول، وهذا كلام إمام مجرب خبير بالفقه وبمسائله.

قال: "باختلاف الوجوه والروايات" ما الفرق بين الوجوه والروايات؟ ما المراد بالوجوه والروايات؟

تذكرون ذكرت لكم أنه لابد أن نعرف مصطلحات كل علم، كل علم له مصطلحات، الفقه له مصطلحات، من مصطلحاته: الوجوه والروايات.

يقولون في المذهب الحنبلي: إذا نصَّ الإمام على مسألة، المسألة إما أن يكون للإمام نص عليها، وإما ألا يكون له نص عليها، فإن كان له نص على المسألة، يعني قال هذه

المسألة حلال أو حرام، إذا نص على هذه المسألة، فإنها تكون رواية، ويعبِّر عنها بعضهم بالرواية المطلقة، وإن لم ينص عليها، وإنما استنبطت من أقواله الأخرى، فيسميها بعضهم بالرواية المخرَّجة، وهي التي تسمى بالوجوب، هذا ما ذكره الإمام ابن بدران –رحمه الله.

قال –رحمه الله: "سألني بعض إخواني تلخيصه"، لماذا؟ قال: "ليقرب على المتعلمين".

إذن السبب الأول: ليكون عمدة للقارئ.

السبب الثاني: لئلا يلتبس الصواب فيه بالخطأ باختلاف وجوه الروايات.

السبب الثالث: قال: ليقرب على المتعلمين.

السبب الرابع: قال: ويسهل حفظه على الطالبين.

هل يحفظ الإنسان عمدة الفقه؟

نقول: نعم، المتون الفقهية تُحفظ، والمتون العقدية تُحفظ، ومتون النحو، ومتون المصطلح، ومتون الحديث تُحفظ، لكن هذا الحفظ يكون بعد حفظ كلام الله –سبحانه وتعالى–؛ لينير العبد صدره بكلام الله، قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي: "من حفظ القرآن عظمت قيمته"، وكان الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم –رحمه الله– مفتي الديار السعودية، وشيخ الشيخ عبد العزيز بن باز –رحمه الله– إذا أتى طالب كما يذكر حفيده معالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، إذا أتى الطالب إلى الشيخ ليقرأ عليه، قال: هل حفظت القرآن؟ فإن قال: نعم، قال: ادخل معنا، وإن قال: لا، قال: اذهب فاحفظ القرآن. وهذا الأمر كان عليه عدد من السلف الصالح –رحمهم الله تعالى.

فحفظ هذه المتون يسهل الأمر على الطالب، ويعينه في كثير من الأوقات.

قال: "فأجبته إلى ذلك، سبب التأليف"، أنه بطلب من بعض إخوانه ومحبيه.

قال: "معتمدًا على الله –سبحانه".

العبد لا غنى له عن الله، ولو كثر علمه، لا تستغن عن ربك، كلما كثر علمك كثرت حاجتك إلى أن تعتمد على الله –عز وجل–، وكلما قلَّ علمك اعتددت برأيك، ولهذا يقولون: أهل العلم هم أهل الخشية، فالإنسان كلما سلك طريق العلم، كلما وصل إلى هذه الخشية.

يقول بعض العلماء: العلم ثلاثة أشبار، من دخل الشبر الأول، أول ما تبدأ تقرأ في العلم قال: تكبر، يرى أنه أصبح من علماء المسلمين، قال: فإذا دخل الشبر الثاني، استمر في العلم، أيقن أنه لا يعرف شيئًا، حس بالجهل، قال: فإذا أدرك الشبر الثالث: أيقن أنه لا يعلم شيء، وعند ذلك يتأمل قول الله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال: معتمدًا في هذا التأليف ليس على علمي، ولا على قدرتي، ولا على حفظي، ولا على فقهي، وإنما معتمد في ذلك على الله، في إخلاص القصد لوجهه الكريم، وهذا أمر أذكِّر به نفسي وإخواني، العلم بلا إخلاص، يفقد حلاوته طالب العلم، العلم بلا إخلاص يكون وبالاً على صاحبه، أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، وذكر منهم قارئ القرآن، وذكر منهم العالم، لماذا؟ لأن علمه ليس لوجه الله، وما أجمل ما قاله بعض العلماء: إذا فقد طلب العلم الإخلاص، انتقل من أعظم الطاعات إلى أحط المخالفات، أجارنا الله وإياكم منها.

قال: "والمعونة" هو يريد أن يعتمد على الله بالإخلاص، والمعونة على الوصول إلى رضوانه العظيم.

أن يرضى الله عنك، هذه غاية المنى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو في ألم، وفي حرب الأعداء له، قال: «إن لم يك بك علي غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي»، وحينما يدخل أهل الجنة الجنة، قال الله: «هل رضيتم؟».

قالوا: ومالنا لا نرضى يا ربنا، وقد آتيتنا ما لم تؤت أحدًا من العالمين.

قال: «فإني أخلع عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، وهذا هي الغاية العظيمة التي يسعى إليها طالب العلم، أن ينال رضوان الله -سبحانه وتعالى-، ولأن العبد في سعيه إلى طلب الإخلاص من الله -جل وعلا-، وطلب رضوانه -سبحانه وتعالى-، هو بحاجة أن يلتجئ إلى الله، ولذلك قال: "وهو حسبنا ونعم الوكيل".

ثم قال -رحمه الله- أيضًا في بيان منهجه في هذا الكتاب، قال: "وأودعته أحاديث تَبَرُّكًا بها"، العلم والأحاديث يُتبرَّك بها، كيف لا؟ فهي أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيطلب العبد منها البركة، بركة بذكر الله، بذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى ذكر بعض العلماء: أن البدء بـ"بسم الله الرحمن الرحيم" تبركا بهذه، لكن لا يكون كما حدث في تاريخ المسلمين، أنهم كانوا يقرؤون البخاري ومسلم تَبَرُّكًا بدون فهم لمعانيه، أعظم بركة العلم أن تنشره بين الناس، وأن تطبقه على أرض الواقع، وهذا ما فعله -رحمه الله- حينما طبق هذه الأحاديث على الأحكام الشرعية.

قال: "وأودعته أحاديث صحيحة"، بمعنى أنني سأعتمد على الأحاديث الصحيحة، لن أعتمد على حديث ضعيف، أو نحو ذلك.

قال: "تَبَرُّكًا بها، واعتمادًا عليها" في تطبيق الأحكام.

قال: "وجعلتها من الصحاح؛ لأستغني عن نسبتها إليها"، هذا منهج، وكل عالم كل مؤلف يُحتكم إلى منهجه، أهم شيء تكون الرؤية واضحة، يكون التصور واضح، فهو

يقول: لن أسندها، لن أقول: رواه فلان وفلان، لأنني جعلتها من الأحاديث الصحيحة، وبالتأمل في الأحكام التي ذكرها الإمام -رحمه الله- نجد أن أكثر الأحاديث كانت من البخاري ومن مسلم من المتفق عليه، والقليل من خارج الصحيحين، لكنها أحاديث صحيحة، وقد سار المصنف -رحمه الله- حينما تنظر إلى المنهج الذي رسمه، وإلى التطبيق ، تجد أنه قد طبَّق هذا المنهج بشكل واضح وكبير عليه رحمة الله، وجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء.

بإذن الله -عز وجل- في الحلقات القادمة سنتحدث في أول الأبواب "كتاب الطهارة" العلماء -رحمهم الله- لهم تصنيف رائع وجميل في الأبواب، فهم يجعلون الأساس الكتاب، والكتاب يندرج تحته عدد من الأبواب، والأبواب يندرج تحتها عدد من الفصول، والفصول يندرج تحتها عدد من المباحث، والمباحث يندرج تحتها عددًا من المطالب، والمطالب يندرج تحتها عدد من المقاصد، والمقاصد يندرج تحتها عدد من الفروع، والفروع يندرج تحتها عدد من المسائل.

والعلماء -رحمهم الله- بهذا التصنيف ترى أن لديهم قدرة على إحكام أبواب الفقه، وتقديمها للناس بشكل كبير ومفيد.

نسأل الله -عز وجل- أن يجزي علماءنا خير الجزاء، وأن يسلك بنا وبكم ركابهم وطريقهم، إنه -عز وجل- جواد كريم.

شكر الله لكم حضوركم، ولإخواننا المشاهدين، ولأبنائنا الطلاب في موقع البناء العلمي، ونسأل الله -عز وجل- أن يستعملنا جميعًا في طاعته.

شكر الله لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.